



ملامح نظرية الفونيم في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي

Features of phoneme theory in kitab AL-Ayn dictionary of Al-Khalil Ibn Ahmed Al-Farahidi

كهد. عبد القادر بوشيبة²

مريم منصوري¹

²bouchiba_aek@yahoo.com mansourimeryem461@gmail.com¹

¹مخبر المعالجة الآلية للغة العربية- جامعة تلمسان

المركز الجامعي- مغنية- الجزائر

تاريخ النشر: 2020/12/10

تاريخ القبول: 2020/10/30

تاريخ الاستلام: 2020/06/27



ABSTRACT:

ملامح نظرية الفونيم

The Phoneme Theory is a modern Western theory in its codification, yet Arabic in its origin and principles. This study aims at revealing the Phoneme Theory features in the oldest Arabic dictionary, which is Kitab-Al-'Ayn of Al-Khalil Ibn Ahmad Al-Farahidi. The "phonemic arrangement" was the core principle of Al-Khalil lexicon theory. Remarkably, most of Al-Khalil's principles were recently adopted by Western scholars. The results indicate that Arabs and Al-Khalil particularly were aware of the Phoneme Theory; however, they were unfamiliar with codifying, synthesizing concepts and formulating them into theories. This has made Arab scholars in dependency on Western sciences.

Keywords: The phoneme theory- The phoneme- The allophone- Kitab-Al-'Ayn- Al-Farahidi.

إنّ نظرية الفونيم نظرية حديثة غربية بامتياز في تقنياتها، عربية في جذورها، وفي مبادئها، ونروم في هذه الدراسة إلى الكشف عن ملامحها في أول معجم لغوي عربي عام، كانت مسألة "الترتيب الصوتي" أهم مبدئ تقوم عليه نظريته المعجمية، وهو "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، إذ نجده قد تطرق في ثانيا معجمه إلى جلّ المبادئ التي سطرها الغرب حديثاً بخصوص هذه النظرية. وقد أسفرت هذه الدراسة على وعي العرب عامة والخليل خاصة بمضمون النظرية ومبادئها، ولكن ما كان ينقصهم هو التقنين وجمع المفاهيم وبلورتها في شكل نظريات، الأمر الذي جعلهم في مصاف الأتباع للغرب في مسائل عدّة لجلّ العلوم.

الكلمات المفتاحية: نظرية الفونيم- الألفون- كتاب العين- الفراهيدي.

¹ المؤلف المرسل: مريم منصوري

1. مقدمة:

يُعدُّ "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي (100-175هـ) من أهم المعاجم العربية العامّة؛ للأسباب التالية: فهو أوّل معجم مكتمل الصنّاعة ظهر في القرن الثّاني للهجرة، من منطلق أنّ نظريته المعجمية كانت مبنية على أسس ومبادئ رصينة، وجديدة الطّرح لم يسبق إليها، وبذلك خطا بالمعجمية العربية خطوة نحو الأمام، إذ أصبح المرجع الأساسي لكلّ المعاجم التي ظهرت بعده، وقد كان المبدأ الصّوتي هو المنطلق الرّئيسي لبنائه، وبذلك كان للمعجم دور أساسي في التّأصيل للدّرس الصّوتي العربي.

في ضوء هذه المعطيات ارتأينا معاينة وتتبع ملاح نظرية الفونيم في هذا المعجم باعتباره مادّة دسمة للدّراسات الصّوتية من أجل الكشف عما مدى وعي الخليل بمبادئ هذه النّظرية، واستجلاء أهم النّقاط التي تعكس هذا الوعي، في شكل عناصر تُجيب عن الإشكال التّالي: كيف وظّف الخليل بن أحمد الفراهيدي مبادئ نظرية الفونيم في معجمه "كتاب العين"؟

والهدف من هذه الالتفاتة هو التّأصيل لنظرية الفونيم من جهة، والوقوف على جذورها الأولى من جهة أخرى، بتتبع ملاحها في أوّل مصنّف مكتمل الصنّاعة، أسّس للمعجمية ولعلم الأصوات في الآن ذاته، كل ذلك من خلال الوقوف أولاً على مفاهيم تخص النّظرية بوصفها وتحليل عناصرها؛ لنستخلص بعدها أهم المبادئ والأسس التي قامت عليها من منطلق الزّوايا المختلفة التي تناولتها، لنصل إلى لبّ الدّراسة بتتبع أهم الإشارات والمفاهيم التي جادت بها قريحة الخليل بن أحمد الفراهيدي في هذا المضمّر، لنختم كلّ ذلك بفكرة عامّة تلخص مضمون المقال وتُجيب عن الإشكالية المطروحة بصورة واضحة.

2. مفاهيم أساسية لنظرية الفونيم:

يُعدّ الفونيم من المصطلحات التي نالت قسطاً وافراً من الاهتمام، إذ تناوله الباحثون بالدّراسة والتحليل من عدّة نواحي ومن وجهات نظر مختلفة نعرضها فيما يلي باختصار شديد؛ لأنّها جدّ مهمّة لاستجلاء المبادئ العامّة لنظرية الفونيم. وقبل البدء نشير إلى قضية مصطلح الفونيم أو نظرية الفونيم؟

الفونيم هو مصطلح لكنّ مضمونه فكرة واضحة مكتملة لها أتباعها ممّا جعلها تتبلور في نظرية لها أسسها ومبادئها.

والفونيم في صورته العامّة: «إحدى وحدات الكلام الصّغرى»²¹، وهو تعريف لغوي كما أشار إلى ذلك "غازي مختار طليمات"، أمّا اصطلاحاً فهو: «صوت لغويّ يُشكّل جزءاً دلاليّاً في لغة ما، ويُمكن المتكلم لتلك اللّغة أن يُميّز بين مفرداتها»³.

وعليه، فالفونيم هو أصغر وحدة لغوية، تُميّز بين المفردات في اللغة المعيّنة، وهو العنصر الأساس الذي يُشكل الكلمات والجمل، وقد عرّفه العلماء من وجهات نظر مختلفة.

1.2 اتجاهات العلماء في تعريف الفونيم:

يعرّف الفونيم من الناحية العقلية والنفسية بأنه: «صوت نموذجي يهدف المتكلم إلى نطقه، ولكنه ينحرف عن هذا النموذج إمّا لأنّه من الصّعب أن يُنتج صوتين مكرّرين متطابقين، أو لنفوذ الأصوات المجاورة»⁴؛ بمعنى أنّ الفونيم صوت أساسي والأصوات المنطوقة والمجسدة بالفعل هي تنوعات صوتية له فقط.

ومن الناحية الوظيفية يعرف "تروبتسكوي" (Troubetskoï) (ت1929م) الفونيمات بأنّها: «الكيانات الصّيائية التي لا يُمكن تقسيمها من وجهة النّظر اللّغوية إلى كيانات متتابعة أصغر»⁵، كما يصرّح قائلاً بأنّها: «علامات مميّزة»⁶.

ويُفهم من هذا الاتجاه أنّ الفونيم هو أصغر وحدة في اللّسان المدروس ولا يُمكن تقسيمه إلى وحدات أصغر وله خاصية التّمييز بين الكلمات.

وقد توسّع "تروبتسكوي" في تحليل فكرته عن "الفونيم"، وانتهى إلى أنّ الأساس في تعريفه يجب أن يكون "وظيفياً" يميّز بين الكلمات، لذا صاغ ثلاث قواعد يُمكن تطبيقها على اللغة العربية؛ وهي: القاعدة الأولى: إذا كان الصّوتان في نفس اللغة، ويظهران في نفس الإطار الصّوتي، وإذا كان من الممكن أن يحلّ أحدهما محل الآخر دون أن ينتج عن هذا التّبادل اختلاف في المعنى، حينئذٍ يكون هذان الصّوتان صورتين اختياريّتين لوحدة أصواتية واحدة، أي لفونيم واحد.⁷

ومن تطبيق هذه النّظرية ننظر إلى النّطق القرآني للسين في (مسيطر)، نجدها أحياناً تأتي مرققة، وأحياناً أخرى مفخمة في شكل "صاد"، وهي أصلاً "سين"، فالصّورتان إذن هما تنوعان لوحدة واحدة، ما دام التّغيير لم يترتب عليه اختلاف في المعنى.⁸

القاعدة الثّانية: إذا جاء صوتان في نفس الموقع الصّوتي، ولا يُمكن أن يُستبدل أحدهما بالآخر دون أن يتغيّر معنى الكلم، فهذان الصّوتان هما تأديتان لفونيمين مختلفين.⁹ ومن ذلك: "نام" و"نال"، فالميم فونيم، واللام فونيم؛ لأنّ "الميم" و"اللام" تأديتان لفونيمين مختلفين.

القاعدة الثّالثة: إذا كان صوتان متقاربين مخرجاً أو صوتيّاً، ولا يقعان أبداً في نفس السّياق من الحروف، فهما تأديتان تركيبيتان لفونيم واحد¹⁰، بمعنى أنّ الفونيم الواحد يُنطق بأشكال مختلفة بحسب البيئة الصّوتية التي يكون فيها.

وقد أطلق "تمام حسّان" على هذه الفكرة مصطلح (التّخارج) بين أعضاء الوحدة، فالنّونات المختلفة متخارجة من حيثُ الموقع؛ لأنّ لوحدة النّون تنوعات كثيرة يظهر كل منها في موقع معيّن.¹¹

فالنّون في "إن تَاب" تختلف عنها في "إن طَاب" وهكذا، وكذلك فونيم الفتحة في "التّاء" يختلف عنها في "الطّاء" فالأولى مرققة والثّانية مفخمة.

وعلى الرّغم من أنّ "تروبتسكوي" يُصرّ على تعريف "الوحدة الأصواتية": أي "الفونيم" تبعاً لوظيفته إلّا أنّه يعتمد على تحديد الجانب العضوي والسّمي في وصفه¹².

فللوحدة الأصواتية إذن ملامح تمييزية (من حيث المخرج والصّفات) في حالتها المفردة كما هو وارد في كتب الأصوات عامّة، وورود الفونيمات في سياقات مُتنوعة يجعلها تُحافظ على ملامحها في سياقات معيّنة، وتتغيّر في سياقات صوتية أخرى؛ وذلك بحسب الأصوات المجاورة لها.

أمّا من النّاحية الفيزيائية المادية فيُعرّفه "دانيال جونز" (Danial jones) (ت1967م) بأنّه: «عائلة من الأصوات في لغة معينة، متشابهة الخصائص، ومستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة في نفس السّياق اللّغوي، الذي يقع فيه الآخر»¹³.

وأساس هذا التّعريف أنّ هناك تشابه صوتي بين عائلة الفونيم الواحد، وعدم تبادل المواقع بين هذه الصّور، ونمثل لذلك بالنّون في العربية كما أشرنا سابقاً؛ فهي أعضاء لفونيم واحد صورته الكتابية "ن"، ولكن أي نون لا تقع مكان النّون الأخرى، فالنّون عند النّطق بها في (إنّ طَاب) تختلف عنها في (إنّ تَاب) وتختلف أيضاً عنها في (أنّبيهم).

وآخر اتّجاه هو الاتّجاه التجريدي فيرى أنصاره أنّ: «الفونيم هو شيء تجريديّ ولكنّه يتحقّق في أصواته»¹⁴.

وفكرة هذا الاتّجاه أنّ الفونيم هو الأصل والأساس الذي تتعدّد صورته في الواقع، أي في النّطق.

وقد أضاف "سمير استتية" اتّجاهاً تكاملياً حاول أن يجمع فيه بين كل الاتّجاهات ليخرج بتعريف شامل للفونيم بأنّه: «وحدة صوتية ذات وجود ذهني، له تحقّق على مستوى النّطق والبناء، قابل للتّوظيف الدّلالي أو الإشاري بما يقتضيه النّظر الاجتماعي في المحيط اللّغوي الواحد»¹⁵.

وعليه، فالفونيم لا وجود له، بل يظهر في شكل تنوعات صوتية يحدّدها السّياق الذي ترد فيه، ويرمز لكل صورته المحققة في الواقع؛ أي في الجانب المنطوق برمز واحد، وتسمى تلك التّنوعات بالألفونات (Allophones)، وتعرف بأنّها: «كل مظهر مادّي مختلف للفونيم»¹⁶، وبذلك فالسّياق الصّوتي الذي يرد فيه الفونيم هو الذي يحدّد نوع الألفون، وبالتالي فهو جزء منه.

وانطلاقاً ممّا سبق: «يمكننا أن نعتبر مصطلح "حرف" في اللّغة العربية، مقابلاً لمصطلح "فونيم" في اللّغة الإنجليزيّة، كما يُمكننا أن نعتبر مصطلح "صوت" في اللّغة العربية مقابلاً لمصطلح "ألفون" في اللّغة الإنجليزيّة»¹⁷، وهذا ما يؤكّد وعي العرب بمضمون النّظرية التي عبروا عنها بمصطلحات خاصّة بالبيئة العربية، ولكن محمولاتها الدّلالية لا تختلف عنها.

وما يلاحظ أننا ركّزنا الحديث عن الصّوامت، ولكنّ تجدر الإشارة إلى أنّ ما ذكرناه عن الصّوامت ينطبق أيضًا على الصّوائت، ونمثل لذلك بالفتحة، إذ تختلف في نطقها بحسب موقعها في الكلمات وبحسب الصّوت المرافق لها، فالفتحة في الظّاء مثلاً تختلف عنها في الباء باعتبار الأولى مفخمة والثانية مرققة، فالفتحة فونيم تتعدّد صورته عند النّطق وبحسب الحرف المرافق، والسّياق الذي يرد فيه.

2.2 بداية فكرة الفونيم:

الفونيم هو مصطلح غربي وحديث إلّا أن فكرته قديمة جدًّا «أدركها العرب وغيرهم من الأمم، وإن بصور غائمة لا تُوهل نفسها لأن تكون نظرية واضحة صالحة للتّطبيق والتّحليل الصّوتي»¹⁸.

وتُعدّ الألفبائيات في اللّغات مظهرًا ووعيًا بفكرة الفونيم، فإذا رجعنا إلى «الألفباء السنسكريتية نجدها قد أُقيمت على أساس فونيمي»¹⁹، وكذلك الألفباء العربية لو أمعنا النّظر فيها نجدها ترمز للوحدات الصّوتية ولا تُفرّق بين رموز الأصوات إذا لم يكن الفرق بينها فرقًا وظيفيًا؛ بمعنى أنّها لا تفرق بين اللام المفخمة واللام المرققة بل ترمز لهما برمز واحد وهو (ل)، وبذلك فهي أيضًا قد أُقيمت على أساس فونيمي.

ومما سبق، نستنتج أنّ العرب القدامى كانوا على وعي بفكرة الفونيم، ولكنّها لم تظهر إلى الوجود كنظرية لها أسسها ومبادئها إلّا في العصر الحديث حين اتّسعت الدّراسات وتعمقت لذا «تعدّ نظرية الفونيم من النّظريات الحديثة»²⁰، وبذلك قد نال الفونيم حظه من بين الدّراسات على يد رواد عاشوا في أواخر القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر؛ نذكر منهم ما يلي²¹:

- هنري سويت (Henry Sweet) (ت1912م).

-جون بودوين ديكورتي (Jan Baudoin de courteney) (ت1929م).

-جوست وينتر (lost Winter) (ت1929م).

وبذلك فنظرية الفونيم هي نظرية غربية من منطلق أنّهم نظّروا لها ووضعوا حدودها، ووضعوا مصطلحاتها، ولكن هذا لا ينفي وعي العرب بمضمونها قبل ذلك بقرون.

2.3 خصائص الفونيم:

اتّفق الدّارسون على خاصيّتين مهمّتين للفونيم هما²²:

* إنّ الفونيمات جزء من نظام اللّغة المعينة، إذ تختلف في عددها وخواصها من لغة إلى أخرى، ومن ثمة لا مجال لقياس فونيمات لغة على فونيمات غيرها من اللّغات.

* إنَّ البحث في الفونيمات ينصرف بتمامه إلى اللُّغة المنطوقة، إذ هي وحداتها الصَّوتية، أمَّا اللُّغة المكتوبة فوحداتها هي الرُّموز الموضوعية لترجمة المنطوق، وتُسمى (graphemes).

3. مبادئ وأسس نظرية الفونيم:

من خلال استقصائنا لمباحث نظرية الفونيم ودراسة جزئياتها، تبين لنا أنَّها تركز على مجموعة أسس واضحة المعالم نوجزها في النقاط التالية:

3.1 هل نقيس فونيمات لغة على فونيمات لغة أخرى؟

الفونيم هو أصغر وحدة صوتية في اللسان المدروس، سواءً أكان اللسان عربيًا أم أجنبيًا، مع ضرورة دراسته في كلِّ لغة على حدة؛ لأنَّ لكل منها خصائصها ومميزاتها التي تنفرد بها عن الأخرى، إذ نجد بعض الأصوات في لغة لا يفرقان بين معانيها في حين نجدها في لغة أخرى لها خاصية التمييز بين معاني الألفاظ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر نجد: «(k) و(q) لا يفرقان بين المعاني في الإنجليزية، فلا يعتبران فونيمين مختلفين، ولكنَّهما يفرقان بين المعاني في العربية، ولذا يجب اعتبارهما فونيمين مختلفين في العربية»²³، وهذا يؤكد ضرورة دراسة الفونيم في كلِّ لغة على حدة.

3.2 الفونيم أساس تكوين الكلمات والجمل:

الفونيم هو جزء من النظام اللُّغوي؛ بمعنى هو الحجر الأساس الذي تنبني على أساسه الكلمات والجمل، فالعبارات، ثم النصوص، فكلمة (دَرس) تتكون من ستة فونيمات: الدال، والفتحة، والراء، والفتحة، والسين، والفتحة، وهكذا تتكون الجمل....

الفونيمات
↙
الصوامت (فونيم الألف- فونيم الباء-...)
↘
الصوائت (فونيم الفتحة- فونيم الفتحة الطويلة-....)

وتسمى بالفونيمات التركيبية أو الفونيمات الخطية، وهي: «التي تكون جزءًا من أصغر صيغة لغوية ذات معنى، منعزلة عن السياق، ويؤدي تغييرها إلى تغيير دلالة الصيغة ومعناها»²⁴.

ولكلِّ فونيم تركيبٍ ملامحه التمييزية الخاصة به في حالته المفردة، والتي قد يعتريها بعض التغير داخل التركيب، وذلك بفعل التأثير والتأثير بين الأصوات المجاورة، ممَّا ينتج عنه تنوعات صوتية لفونيم واحد.

فالفونيم إذن هو مجموعة من التنوعات الصوتية التي يحددها السياق الذي ترد فيه، بمعنى أنَّه يظهر في الجانب المنطوق في شكل تنوعات صوتية (ألفونات)، إذ تتأثر الأصوات بعضها ببعض وينتج عن هذا التأثير بعض التغيرات التي تتلخص في مبدأ المماثلة، وفيما يلي أمثلة تجسد ذلك بوضوح.

فالمماثلة تعرّف بأنها: «تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض، تأثراً يؤدي إلى التقارب في الصّفة أو المخرج؛ تحقيقاً للانسجام الصّوتي، وتيسيراً لعملية النطق، واقتصاداً في الجُهد العضلي»²⁵.

ونمثل لذلك بلام التعريف وتأثرها ببعض الأصوات القريبة منها مخرجا التي ترد بعدها، وهذه الأصوات هي: التّاء، والثّاء، والدّال، والذّال، والرّاء، والزّاي، والسّين، والشّين، والصّاد، والضّاد، والطّاء، والظّاء، واللّام، والنّون²⁶، ونمثل لذلك بكلمة (الطّالب)؛ فلام التعريف لا تنطق بل تدغم في الطّاء، وهي في الأصل (فونيم اللّام)، ولكن التّجسيد في الواقع والنطق بها تأثر بالصّوت المجاور لها وهو الطّاء، والأمر يختلف مع كلمة (الكتاب)؛ فاللام تنطق وتُجسد في الواقع.

وعليه، ففونيم اللّام في (الطّالب) و(الكتاب) له رمز كتابيّ واحد، لكنّها في النطق تتجسد في شكل تنوعات صوتية.

3.3 دور في تغيير معاني الكلمات:

للفونيم ميزة تغيير معاني الكلمات عن طريق التّبادل، فالوحدة المعجمية (مال) تختلف عن (نال) من حيث المعنى؛ بفضل وجود فونيم (السّين) في الكلمة الأولى ووجود فونيم (النّون) في الكلمة الثّانية، كما أنّ حركة أو صائت له دور في تغيير المعنى أيضاً.

4. ملاح نظرية الفونيم في كتاب العين:

يُعدّ كتاب العين أوّل معجم عربيّ في تاريخ البشرية، من صنع العالم الفدّ "الخليل بن أحمد الفراهيدي"؛ العالم النّحوي والأديب، ومؤسس علم العروض، وعالم بالرياضيات أيضاً، وقد ساعدته معرفته بكلّ تلك العلوم على الظّفر بإنجاز أوّل معجم عربيّ ناضج حاول فيه جمع اللّغة بطريقة إحصائية رياضية، طريقة عجيبة لم يسبق إليها، على الرّغم من بعض الإشاعات في نسبة كتابه ليس مجالنا هذا للتّفصيل فيها.

وقد كان وعي "الخليل بن أحمد الفراهيدي" الصّوتي رغم تقادم الزّمن وعياً دقيقاً محكماً ومبرراً، حيثُ نجده قد أشار إلى أغلب المسائل الصّوتية التي توصلت والتفتت إليها الدّراسات الحديثة الغربية وقننتها وجعلت لها ضوابط ومصطلحات جديدة.

ومن هذا المنطلق، وبعد الإطلالة الخفيفة بخصوص نظرية الفونيم وتسطير مبادئها، نُشير إلى ملاح هذه النّظرية في كتاب العين، ونبيّن مفاهيم الخليل لمصطلحاتها، وكيفية توظيفه لمبادئها في ثنايا معجمه، بمعنى أنّنا نبيّن كيف ضمّن الخليل مبادئ النّظرية التي نحن بصدد دراستها في نظريته المعجمية -والتي غالبا ما توضّح في مقدمة المعجم-، وفي المقابل نقف على كيفية تطبيقه لها في ثنايا معجمه، وهذا ما سنبيّنه بذكر نماذج واضحة تعكس مبادئ النّظرية بجلاء ووضوح.

4. 1 تحديد الخليل عدد فونيمات اللُّغة العربية وأبنيتهما:

الفونيم أصغر وحدة صوتية في اللسان المدروس، وقد حدّد "الخليل بن أحمد الفراهيدي" الحروف العربية، حيثُ نجده يقول: «في العربية تسعة وعشرون حرفًا: منها خمسة وعشرون حرفًا صحاحًا لها مدارج، وأربعة أحرف جُوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة»²⁷، كما حدّد عدد الأبنية بقوله: «كلامُ العرب مبنيٌّ على أربعة أصناف: على الثنائيِّ والثلاثيِّ، والرُّباعيِّ، والخماسيِّ»²⁸. وعليه، فبعد أن حدّد "الخليل" عدد الأصوات وعدد الأبنية الممكنة في اللُّغة العربية صرّح قائلاً: «فهذه تسعة وعشرون حرفًا منها أبنية كلام العرب»²⁹.

فالحروف إذن هي الحجر الأساس لبناء الكلمات والجمل والنصوص بمعنية الصّوائت التي لها دور رئيسيٌّ في عملية النطق، فهي تُخرج الصّوائت من سكونها، والخليل جعل أول مبدأ من مبادئ نظريته المعجمية هو تحديد فونيمات اللُّغة العربية، وعدد أبنيتهما الممكنة. ونمثل لذلك بكلمة "عَلِمَ": إذ تحتوي على ستة فونيمات هي: العين واللام والميم (صوائت)، والفتحة والكسرة والفتحة (صوائت) على الترتيب.

4. 2 إشارات الخليل لدور الفونيمات في تغيير معاني الكلمات:

إنّ للفونيم دور في تغيير معاني الكلمات وتوليدها وذلك عن طريق التّبادل، ونمثل لذلك من كتاب العين بالوحدتين المعجميتين التّاليتين (نَزَفَ) و(نَزَمَ)، إذ التّغيير في الحرف الأخير فقط أدّى إلى تغيير في دلّالتهما، فنجد "الخليل" يقول في (نَزَفَ): «النَّزْفُ: نزح الماء من البئر أو النهر شيئاً بعد شيء، والنَّزْفُ: الدَّمْعُ»³⁰، أمّا في (نَزَمَ)، فيقول: «النَّزْمُ: شدّة العضِّ»³¹، فبفضل وجود فونيم "الفاء" في الكلمة الأولى، ووجود فونيم "الميم" في الكلمة الثّانية نتج لنا وحدتين معجميتين مختلفتين في المعنى، وتوجد أمثلة كثيرة في المعجم ولكننا اكتفينا بمثال واحد.

وفي هذه النّقطة تظهر بجلاء ووضوح أثر الدّراسات الصّوتية على الصّناعة المعجمية: إذ لنظرية الفونيم فائدة معجمية: لأنّ إبدال فونيم بفونيم ينتج لنا وحدة معجمية جديدة أو صيغة مختلفة أو وظيفة مغايرة³²، وبذلك فقد فطن الخليل لهذه الفائدة منذ القرن الثّاني للهجرة.

كذلك تظهر مسألة تغيير معاني الكلمات عن طريق التّبادل في "فكرة التّقليبات" التي نادى بها الخليل واعتمدها كمبدأ أساسيٍّ من مبادئ نظريته المعجمية، والتي على أساسها حدّد لكل بناء عدد الصّور الممكنة، إذ نجده يقول: «اعلم أنّ الكلمة الثّنائية تتصرّف على وجهين، والكلمة الثّلاثية تتصرّف على ستة أوجه، والكلمة الرّباعية تتصرّف على أربعة وعشرين وجهًا، والكلمة الخماسية تتصرّف على مئة وعشرين وجهًا»³³، وبعد ذلك يُحدّد المستعمل من المهمل في ضوء الصّور الممكنة من كلام العرب، ونمثل لذلك بالجزر الثلاثي (سلم) الذي له ست صور هي: (سلم - سمل - لسم - لمس -

مسـل- ملـس)، وإذا تتبعنا معاني كل واحدة فسنجدها تختلف عن معنى الأخرى رغم اشتراكهم في الحروف؛ وبذلك فموقع الحرف من بنية الكلمات له دور في تحديد معانيها.

4. 3 إشارات الخليل للتنوعات الصوتية لفونيم واحد في كتاب العين:

ذكرنا بأنّ الفونيم يظهر في شكل تنوعات صوتية يحددها السياق الذي ترد فيه، وقد أشار الخليل إلى هذه النقطة من خلال حديثه عن تأثير الأصوات بعضها ببعض ويمكن أن نمثل لذلك بظاهرة الإدغام في الثلاثي المضعف: مدّ، وشدّ... فأصلهما: مدد، وشدد.

كما أشار إلى الأصوات التي لا تجتمع في كلمة واحدة بقوله: «إنّ العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجهما إلّا أن يُشتَقَّ فعلٌ من جمع بين كلمتين مثل (حَيَّ على) كقول الشاعر: أَلَا رَبَّ طَيْفَ بَاتَ مِنْكَ مُعَانِقِي إِلَى أَنْ دَعَا دَاعِيَ الْفَلَّاحِ فَحَيَّعَلَا.

فهذه كلمة جُمِعَتْ من (حَيَّ) ومن (عَلَى) وتقول منه: (حَيَّعَل) يُحَيِّعِلُ حَيَّعَلَةً»³⁴.

ويواصل الخليل حديثه في هذا المضمار عن الكلمة العربية، وكيفية تمييزها عن الكلمات المحدثّة والمبتدعة بقوله: «فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرّة من حروف الذّلق أو الشّفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق فاعلم أنّ تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب»³⁵.

وعليه، فالخليل بن أحمد الفراهيدي بيّن بوضوح ظاهرة اجتماع الفونيمات بعضها ببعض، والظواهر التي تنتج أو تترتب على ذلك، ومنه فقد التفت إلى ما جاءت به نظرية الفونيم دون التّصريح بذلك بل تظهر في شكل ومضات تحتاج إلى تدبر وتمعن.

*نُشير كذلك في هذا الباب إلى قضية المصطلحات، فالفونيم باصطلاح الغرب هو الصّوت باصطلاح العرب أي الجانب المنطوق، والذي عبّر عنه "الخليل" بالحرف، فقد «نظر إلى الحروف على أنّها أصوات تخرج من جهاز النّطق ففكر بعمق في ترتيبها على أساس مخرجها من الجهاز الصّوتي، وذلك بابتداع طريقة علمية توصل إليها الخليل قائمة على تحليل أصوات الكلمة ومشاهدتها في طريقة إخراجها، وتدقيقها حرفاً حرفاً»³⁶، وقد أهداه فكره إلى طريقة جريئة للتّعرف على مخرج كل حرف من الحروف العربية وذلك بأن «يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف نحو أب، أئ، أخ، أع، أغ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرّب منها فالأرفع، حتى أتى على آخرها وهو الميم»³⁷.

ويُفهم من قول الخليل أنّه عبّر عن الصّوت أي الفونيم بمصطلح "حرف"، وكان يقصد الجانب المنطوق.

وبعد رصد المفاهيم والأمثلة وتحليلها يظهر بوضوح أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي كان على وعي بكل جزئيات نظرية الفونيم، ولكن تجدر الإشارة أنّه لم يذكرها هكذا كعنوان بارز في مقدمته أو في معجمه، بل كانت في شكل ومضات يفهمها كل من كان على وعي بالنّظرية ومبادئها وأسسها.

وباعتبار أنّ العديد من العلماء قد اتّبَعوا الخليل في أسس نظريته المعجمية كالقالي (ت365هـ) في بارعه، والأزهري (ت370هـ) في تهذيبه، وابن سيده (ت458هـ) في محكمه.....، وآخرون ذهبوا مذهبه في تأثر الأصوات بعضها ببعض كسيبويه (ت180هـ)، هذا يدلّ على أنّ العديد من العلماء العرب القدامى كانوا على وعي بمضمون نظرية الفونيم، وتتجلى في مباحث متناثرة في كتبهم أو في مساهماتهم العلمية.

5. خاتمة:

ممّا سبق يُمكن أن نستنتج النّقاط التّالية:

*الفونيم هو الصّوت التّمودجي والأساس، ويتحقق في الواقع المنطوق في شكل تنوعات صوتية يُحدّدها السّياق والأصوات المجاورة له.

*تستند نظرية الفونيم على مبادئ رصينة كانت لها إشارات عند القدماء؛ من أهمها أنّ الفونيم يدرس في كلّ لغة على حدة، وكذلك له دور في تغيير معاني الكلمات، ويتحقق في شكل ألفونات.

*تُعَدُّ نظرية الفونيم من النّظريات الّتي يعتمد على مبادئها المعجمي في بنائه وصناعته لمعجمه.

*وعى الخليل بن أحمد الفراهيدي وفهمه العميق لمبادئ نظرية الفونيم؛ فبناؤه لكتابه العين على أساس صوتي وحصره اللّغة بطريقة إحصائية رياضية، وكذلك مسألة التّقليبات أكبر دليل على فهمه لهذه النّظرية.

*تظهر مبادئ نظرية الفونيم في النّظرية المعجمية للخليل في كتابه العين من خلال تحديده لعدد فونيمات اللّغة العربيّة وأبنيّتها الممكنة، وكذلك في فكرة التّقليبات وتأثر الأصوات بعضها ببعض وما ينتج عنها من تغييرات.

*الفونيم هو الجانب المنطوق الذي عبّر عنه الخليل بالحرف.

*وكخلاصة عامّة: فإنّ معظم المسائل التي تطرقت إليها الدّراسات الصّوتية الحديثة لها جذور عربيّة خالصة كان رائدها الخليل بن أحمد الفراهيدي.

6. الهوامش:

¹ طليمات، غازي مختار، (2000م)، في علم اللّغة، دار طلاس للدّراسات والترجمة والنّشر، دمشق، ص150.

- ³ الطياري، انتصار محمد، (2018م)، نظرية الفونيم في اللغة، المجلة الجامعية، مج: 2، ع: 29، 20، ص58.
- ⁴ عمر، أحمد مختار، (1997م)، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ص175.
- ⁵ علي، محمد محمد يوسف، (2007م)، المعنى وظلال المعنى: أنظمة الدلالة في العربية، دارالمدار الإسلامي، طرابلس، ص246.
- ⁶ حسان، تمام، (1990م)، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص130.
- ⁷ ينظر: الحاج صالح، عبد الرحمن، (2012م)، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، مورفم للنشر، الجزائر، ج2، ص244.
- ⁸ ينظر: الملبرج، برينيل، علم الأصوات، تر: عبد الصابور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، ص238، 239.
- ⁹ ينظر: المرجع نفسه، ص239.
- ¹⁰ ينظر: الحاج صالح، عبد الرحمن، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص245.
- ¹¹ ينظر: حسان، تمام، مناهج البحث في اللغة، ص127.
- ¹² ينظر: الملبرج، برينيل، علم الأصوات، ص240.
- ¹³ الهنساوي، حسام، (2005م)، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدّرس الصوتي الحديث، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ص159.
- ¹⁴ عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ص199.
- ¹⁵ استيته، سمير، (2008م)، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ص78.
- ¹⁶ عبد الجليل، عبد القادر، (1998م)، الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص113.
- ¹⁷ الثوري، محمد جواد، (1996م)، علم الأصوات العربية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، ص121.
- ¹⁸ بشر، كمال، (2000م)، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص493.
- ¹⁹ عمر، أحمد مختار، (1972م)، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص26.
- ²⁰ السعران، محمود، علم اللغة: مقدّمة للقارئ العربي، دار التّهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص195، 136.
- ²¹ ينظر: عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ص168، 169.
- ²² ينظر: بشر، كمال، علم الأصوات، ص495.
- ²³ المصدر نفسه، ص180.
- ²⁴ الهنساوي، حسام، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدّرس الصوتي الحديث، ص165.
- ²⁵ حسان، فدوى محمد، (2011م)، أثر الانسجام الصوتي في البنية اللغوية في القرآن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ص67.
- ²⁶ الخضري، محمود خليل، (1999م)، أحكام قراءة القرآن، نع: محمد طلحة بلال منيار، دار البشائر الإسلامية، ص202.
- ²⁷ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، دار مكتبة هلال، ج1، ص57.
- ²⁸ المصدر نفسه، ج1، ص48.
- ²⁹ نفسه، ج1، ص58.
- ³⁰ نفسه، ج7، ص373.
- ³¹ نفسه، ج7، ص376.
- ³² ينظر: عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ص277.
- ³³ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج1، ص59.
- ³⁴ المصدر نفسه، ج1، ص60.
- ³⁵ نفسه، ج1، ص52.
- ³⁶ محمود، حلمي السيد أبو حسن، (2002م)، مقدمات معاجم الأبجدية حتى نهاية القرن الرابع الهجري (دراسة وتطبيقاً)، التركي للكمبيوتر وطباعة الأوفست، طنطا، ص54.
- ³⁷ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج1، ص47.